طب نفسى

المسرح الاجتماعى النفسى : علاج

د. محمد شعلان

الانسان يقلق حينما يخشى الا يحقق رغباته ويحزن حينما يفشل فى تحقيقها . إنه يشكو من عجزه فى مواجهة الواقع الذى يتعامل معه . وعلاج الشعور بالعجز قد يكون بإعطائه عقارا يجعله يشعر بالقوة أو بتوجيه طاقته للفعل إلى عمل بناء يحدث تأثيراً فى بيئته فيعيد إليه الشعور بالقوة . . لأن المرض هنا يكون هو الوقفة التى يلجأ إليها الفرد لكى يعيد رسم خط سيره بعدها .

ومن طرق العلاج النفسى الجماعى الحديثة المسرح النفسى أو السيكودراما حيث يجسد أفراد المجموعة بالتخيل التلقائى أبعاد الصراع النفسى فى الفرد بينما المسرح الاجتماعى أو السوسيودراما يتناول مشكلة الفرد من منظور الأدوار الاجتماعية التى يمارسها .

وهذه لقطة من المسرح الاجتماعى تبين معاناة الأفراد من خلال الأدوار الاجتماعية التى يلبسونها والتى ترتبط لا محالة بباقى الأدوار الأخرى الموجودة فى المجتمع .

ق . ع . أو مدير قطاع عام / يسبح وعلى جبينه زبيبة . وتبدو عليه درجة من السكينة التى لا تخلى حالة الاكتئاب .

اللهم ادعوك يارب العالمين أن تصبرنا على ما نحن فيه . نحن راضون بحكمك فالحال مستور ولك الحمد . غيرنا يجوع وغيرهم يتخمون لقد جاءنا المتخمون مستوردين للبضائع الفيته ، نبيع للمطحونين . وكيف لنا أن نستغل المطحونين ونحن مثلهم مطحونون ؟

فبينما الأسعار ترتفع فوق طاقة المطحونين ، نشترى نحن ويشترون مما نحن له صانعون بأسعار ترتفع قليلاً وهم بالكاد يدفعون فإن لارتفاع أسعارنا حدودا - رغم أن أسعار الخامات فى ارتفاع وازدياد ونحن نخسرهم لا يكسبون .

ق . خ . أو مدير قطاع خاص (يمسكا بسبحة بينما هو منهمك فى الحديث المرح : وإن كان مرحه لا يخلى القلق الذى يعانى منه) .

ما أعظم هذه الأيام . أموال تتدفق من كل مكان . ما أحلى الربح من الصفقة ، والصفقة تتلوها الصفقة . والناس تسعد بالشراء ، يعقلون ما فى الجيب ، فإذا نفد القلوا ما فى الغيب فتقسط فلم ونستفيد ، وإذا لم يك اسم الربا محبوبا ، فلنبحث عن اسم جديد نحن نشكر الله على ما نحن فيه ، فإذا ما ظلوا جائعين ، فالله لهم بالصبر معين .

موظف بالشركة : سيدى لقد انخفض الانتاج بعد أن كان قد ارتفع لمدة سبعة شهور بعد صرف الزيادة فى الأجور . إنهم يطلبون المزيد بعد أن أصبحت حقا مكتسبا .

ق . ح . : إنهم هؤلاء الشيوعيون مرة أخرى . متى يكفوا عن تضليل الناس . ابعث لى مندوب العمال .

يحضر مندوب العمال ل . ع : ليس فى الأمر شيوع ولا اشتراك . . الناس على دين الملاك تمسك السبحة تطلق اللحية .

المسألة أن هذه الزيادة قابلها التضخم بالإبادة ولم تنفع معه عبادة .

ونحن لا نطالب بزيادة ولكن لقدرتنا الشرائية أن تبقى محمية .

ق . خ (هامسا) : وماذا يهمنى من قوتهم الشرائية : فهم على أية حال لا يشترون ما أبيع . (يلتفت إلى العامل) اسمع يا أخى إن لم تكفوا عن المطالبة وإثارة الشغب فسوف أبلغ المسئولين أن هناك عناصر شيوعية ملحدة توزع المنشورات وتثير الشغب !

ع : سيدى نحن ملتحون ونؤدى الفرائض وليس لنا إلا الله به نستعين : كما أننا لا نثير شغبا لسبب بسيط أنه إذا توقف الانتاج توقفت الأرباح وتوقفت الحوافز . كل ما نطالب به أن نحصل على نصيبا مما نرتحون .

ق . خ : ما هذا الحقد يا أخى ؟ ؟ ألا تدرى أننا بقدر ما نربح فنحن نتعرض للإفلاس التام . لابد أن نؤمن أنفسنا فالمنافسة قوية وإذا لم نربح النهما المنافسون . وما أشرس المنافسين أنا لا أضمن غدى وأعيش فى قلق مستمر . ثم تذكر أننا لو أفلسنا فسوف تفلس انت معنا .

ع : استطيع أن اعمل فى شركة أخرى أو أذهب إلى الدول العربية .

ق . ح : وإذا اغلقت فى وجهك الدول العربية بفضل تعاملنا مع الدول العربية ؟

ع . ل : فى هذه الحالة لابد أن تتقاسم الظلمة . . بالمعروف . . بالدين . . أفلا تمسك بالسبحة ؟

ق . خ (هامسا) : فى هذه الحالة ادعو الله أن يبقى باب الدول العربية مفتوحا ولا مانع من أن يؤمن فى حالة إفلاسى بذهابه هناك ، ولذا فلا مفر من أن اتصالح معه الآن . (إلى العامل) . اسمع يا أخى إذا لم تكن شيوعيا ، فانت من الجامعات الدينية المتطرفة ومن مثيرى الفتنه الطائفية . وعلى أية حال لا داعى لمثل هذه الاجراءات الأمنية : فعمل لا يزدهر فى مثل هذا الجو المخيف . سوف اقترح حلا وسطا : أن يأخذ بعضكم حوافز بالطبع أنت وهذا الآخر . . ما اسمه الذى كان قد بلغ فينا شكوى للحكومة ؟ . . على العموم سوف اترك لك الاختيار . ٦١ ع : أريد ان يقال أنى ساومت على حساب زملائى . ولكن مادامت الأرباح محدودة فشىء أفضل من لا شىء : ثم إننا نؤكد لبعضنا باستمرار ضرورة الرضا بما يقسم به الله فهو الرزاق .

ق . خ : هكذا الأسرة المتحابة . وفق أنكم جميعا أبنائى . وأمل أن يزيد الانتاج . يذهب العامل ويستمر الحوار) .

ق . ع : لقد تجاوزنا هذه المرحلة منذ مدة . الجميع يكافأون سواء عملوا أو لم يعملوا وليس هناك مجال للفصل ولا حتى للإفلاس . لقد أصبح توفير العمل أهم من الانتاج . لدينا بطالة مقنعة تزيد على الثلاثين بالمائة .

ق . خ : أحمد ربك يا أخى . أنت وراءك الدولة بثقلها تشكو لها . إنك مؤمن ونحن القلقون .

ق . ع : ولكنى رغم غياب القلق مكتئب .

فنحن نشكو ونشكو ولا من يسمع .

يحضر مسئول حكومى ح : ماذا عساى أن أفعل . إلى مكبل بقوانين ولوائح وميزانيات لقد أعطيتك كل ما استطيع ، المشكلة أنك لا تعمل بهمة كافية .

ق . خ : اعذره يا سيدى فهو لا يملك حرية الحركة التى أملكها . وإذا كانت القوانين تعيقك عن الحركة فهى تعيقه عن الانتاج وقد تحاسب من قبل الإداريين لو خالفت القانون أما هو فالذى سوف يحاسبه قاض لا يملك الكلمة . فيصمت ويطيل فى صمته حتى يتآكل من الداخل أو يلتهم ما حوله إنه الجمهور .

ح : هذه حدود حركتى . وعلى أية حال فإن سلطانى ليس الجمهور بل من يرأسنى وحتى إذا صرخ الجمهور فلن يصرخ فى ، فهو يعلم أننى أبلد من أن يؤثر فى صراخه . عن ذلك الساعة الآن الواحدة وقد انتهت مواعيد العمل الرسمية

ق . خ : هذا لا يجوز إن المسألة لا تحتمل . أنا لو أفلست فاستطيع أن اذهب إلى الدول العربية ، وربما الأوربية ولدى من المدخرات ما يكفينى ربما أبحث عن عمل جديد . أما أنتم فالمسألة خطيرة وتتعلق بمصير الدولة . والجمهور إذا صرخ فهو سوف يصرخ فى وجه المسئولين . وأنا واثق أن المسئولين لو علموا بحقيقة الأمر لتحركوا . هذا البيروقراطى العنيد يعلم أنه سوف يخرج كالشعرة من العجين .

ق . ع : بل ربما أفضل من الشعرة من العجين . سوف يقول أنا لم أكن صاحب القرار ولم أوافق عما كان يدور وهو يجد الكثيرين من المفلسفين الذى يستطيعون أن يبرروا له لماذا لم يكن يوافق ، هم غير موافقين بطبيعة الحال لأنهم لا يعملون ولا يغيرون . إنها موضة الرفض فى وضع الاتكاء على الأرائك . فليس لديهم ما يخسروه . فإذا استمر الحال استمروا رافضين وإذا تغير قالوا احملونا من على الأرائك واجلسونا على العروش لنتصحكم بما يجب أن تعملوه فنحن السباقون بالرؤية الصحيحة والعالمون بما يجب أن يكون .

ق . خ . أرى الآن محنتك . وأرى كيف إنها أيضا محنتى . ولابد أن نتكاتف لنبه المسئول السياسى . فإن هذا البيروقراطى — أعجز من أن يفعل شيئا وهو مصدور على أية حال .

حضر المسئول السياسى من فى ثقة ولكن مع تواضع شديد . وإن كان يبدو متفائلا بالقدوم . لا داعى للشرح فانا أعلم ما قلتم وما سوف تقولون

المديران معا : هل . تقصد يا سيدى أنك . كنت تنصت علينا ؟

س (ضاحكا) استريحوا يا اخوانى ولا تقلقوا . لا حاجة لى للتنصت فإن أجهزة التنصت عندى عتيقة وتدور كالاسطوانة المشروخة تزيد وتعيد فى نفس الكلام . شيوعيين ملحدين ، متطرفين طائفيين ، عملاء ليبين ، إيرانيين ، يعنين ومن سوء حظهم لا يوجد عندنا علويون أو نكريجيون حتى يتمكنوا من التنويع قليلا . إنى أجاملهم بالاستماع إليهم ولكنى لم أعد أستطيع أن أحتمل الملل . أنا فى النهاية المسئول . ووجهى فى وجه الجماهير . أنا لست موظفا أو بيروقراطيا أو معاصرا ولكنى مسئول . أواجه الواقع وأتعامل معه أخيره أو أحمله . وهذا يعنى أنه ليس لدى من ألومه ولا طاقة أو وقت للوم ، إلا إن كنت أتلقى اللوم ولكن حتى الاستماع للوم لم يعد له مكان فى حياتى . ليس أمامى إلا أن أكرس كل طاقتى للعمل من أجل إصلاح الأمور ، والذى يريد أن يبكى أو يئن أو يلوم فليبك وحده أما الذى يريد أن يعينى كمسئول فانا أرحب به ، إذن فلا حاجة لى للتنصت والذى أريد أن اسمعه منكم ليس هو ما تتفقون به ، لكن ما ترمعون عمله . فأنتم مثل أصحاب مصلحة فى الإصلاح ولا مهرب لكم .

فالدول العربية لن تستوعبكم جميعا ، والدول العربية لا مكان فيها لكم أصلا . الأسرة استركم والجميع أبناؤكم . فلتنفى جميعا ولتتكاتف فى تشخيص المتاكل ولتتكاتف فى وضع الحلول . اتسع دائرة الضوء لتشمل الصفوف الأولى من المتفرجين الذين يجلسون على كراسى متفرقة تكون الدائرة التى تجلس فيها الشخصيات التى ظهرت حتى الآن . وتتواجد أعداد منتظمة . تتعدل واحد كل ٣٠ ثانية . هى العاملين والعاطلين والعاطلين فى قاع العمالة .

ق . ح : ما هذه الضوضاء وما هذا الزحام ؟ كيف لنا أن نحل المشاكل أو نتداول حلولا ؟ من أين أتوا ؟

ق . ع : ومن أين سيوفر لهم العمل ؟ وكيف سأفى باحتياجاتهم ؟ من أين سأفى بالقمح ؟

ح : البراعة لا تحتمل .

عامل ع . أ : إنها مصانع تفريخ للبشر خارج أسوار المدينة . حيث الظلام والملل والرجال والنساء لا يملكون إلا أجسادا يستمتعون بها وأجسادا وأيادى يعملون بها فتفريخ البشر هو انتاجهم ومصدر دخلهم . إنهم لم يفيقوا لوجود الآلة بعد . بالكاد يستوعبهم الراديو والتليفزيون . عن الثروة التى يصدرونها للمدينة وللعالم الغربى . إذ عن يرسل إليهم بعض الدخل . أولادكم مزعجين من أعدادنا ولكن هناك كثيرا منا تحفزوا بفعل الرفض وانوت المكر علاوة على الجهل . وأملنا فى البقاء هو أن تفرخ كثيرا فإذا تخلف البعض استمر الباقى .

ق . خ : ولكن انتم . لماذا تستمرون ؟ ألم نستطيعكم فى المدينة ونوفر لكم وسائل الترفيه والثقافة ؟ ألم نتيكم بالنظر حولكم ؟ واحد كل عشرين ثانية . أواتب ؟ ثم (ضاحكا بخجل) إلى وكيل لاستيراد وسائل منع الحمل .

ع . أ : حكم العادة . أنا احضرنا للقاءنا معا . وما نتقاه منكم لا يمسنا بحدية ولا يثير وجداننا ، ولا يخيف قلقنا وأملنا فهو مجرد تسلية . وما دام الأمر تسلية فى تسلية فلنستمر فى المتعة الحسدية وفى التونس بالأولاد ، والله يرزقنا وإياهم . وماذا يضير الشاة بعد ذبحها ، فرحنا بشرا أو لم تفرح فالمعاناة واحدة .

ق . ح : عن اذنكم . سوف اذهب للاستمتاع . الكل يستمتع . وأنا أعانى من القلق والخوف من المستقبل . لابد أن أحرك وأجرى وأضحك . ومادام الرزق متوافرا اليوم ولا أعلم ما سوف يأتى به الغد فلا مانع من بعض المتعة .

(تظهر زوجته) :

أية متعة يا هذا العدو ؟ (وهى أصل لفظ يا دالعدى) . أين عائد عملك وانشغالك عنى ، ناهيك عن استمتاعك بعيدا عنى . فما دمت تغيب بجسدك عنى فلتوفر فى بديلا : فراشا واسعا وغرفة مزينة . . وسيارة . . وشقة فى المصيف . . و . .

ق . ح : كفى (هامسا) الا تشبع هذه الخنزيرة إنها بطلباتها المتكررة تؤكد باستمرار عجزى . تقارنى بزوج فلانه الذى اشترى لها حاجا من ، الأماكن ، لابد أن اسكتها ، منعها ، حاضر يا سيدتى . سوف احضر لك كل ما تشائين .

ز : إلى سيدات اخريات » : إنه يلوحنا على مضض . فانا أعرف أنه يعشق امرأة أخرى . ويغار عليها وأنه فى سعيه لإسكاتها وقمع فصيحة ربما يعرض علينا الزواج مستغلا سماحة الدين فى تعدد الزوجات .

زوجة أخرى ف . أ : لابد من أن تمنع ذلك . على الأقل تمنع زواجه منها ومشاركة أخرى فى ممتلكاته .

ز : نعم إنه تمنع الانجاب بحجة انشغاله بالعمل علاوة على أنه أعطانا حق إنجاب طفلين أو ثلاثة وهذا يكفى . ولا أخفى عليكن أن هذا يكفينى أيضا . فإنى لا أطيق رعاية الأطفال . والخدم أصبحوا نادرين . ولكن إذا تزوج من أخرى فكيف يحرمها من هذا الحق . فهى لن تطمئن أنه يأخذ زواجه منها مأخذ الجدية إلا إذا انجب منها

ح : نستطيع أن نعدل فى التشريعات لكى نحد من حرية تعدد الزوجات

س : هذا لا يكفى . قد يحل مشكلة ملكية الرجل لشقتين وإنفاقه ببذخ على زوجتين ، وتتوافر شقة إضافية لسكان المدينة . شقة بامتلة الفن لا شك . ولكن مشكلتى ليست ترفكم بل هى نابعة من طرفكم . مشكلتى رعاية هؤلاء الذين يحيطون المدينة من كل جانب ويتسللون إليها بيطء لكن بإصرار . واحد كل عشرين ثانية . إنها أفواه لابد أن نوفر لها الطعام .

لنتشاور بهدف تشخيص الداء ووصف الدواء . وليس أمامى إلا أن أحذرك أنه إذا غبت عن الساحة فسيحقنك الجمهور بمخدرك لن ادعك تفلح فى أن تقدمى للجمهور كبشا أو شاة يذبحها لتفاديك وأنت يا سيدى (إلى مديرق ع) كفانى منك شكوى عاجزة وكأنك أجير عندى . إنى أحملك معى المسئولية واشركتك فى القرار ولكن ما نفعله معا مسئوليتنا أمام الناس .

أصوات معارضة من الخلف وراء سحاب الدخان نصف نائمة ومنطوقة بأفواه يمسك كل منها بعضون : لا توافق . . لا . . توافق . . هذه حلول إصلاحية تضميدية .

س : لم اسمع هل قالوا لا توافق . أو قالوا لا . . توافق . وعلى كل فالأمر سيان ، مادامت المسألة كلاما ، فالمسئول الحكومى عكف على الموافقة المستديمة حتى كدت أظن أنه ليس الا صدى .

(أحد المعارضين يتقدم) : معذرة يا سيدى إن كان بعض زملائى قد أثاروا ضجيجا . ولكن رب ضارة نافعة . كل ما هنالك أن صمتهم الكلام ولا يجدون من يستمع إليهم وها أنت ذا قد انصت إليهم رغم شوشرة الشرطى ! فالناس منشغلة بالبحث عن الطعام والمال ، فإذا وجدوهما استمر انشغالهم بالاستحواذ والتكديس والأنين والملل فى حاجة إلى من يصوغه فى كلمات فى أشعار وأغان ومسرحيات . بدلا من أن ينفجر فى شكل صراخ . أو ينكبهم من الداخل . فلم لا تتركهم يتقدمون على خشبة المسرح ليتكلموا ؟ لعلهم يوصلون إليك ما انت فى حاجة إلى التعرف عليه من حقائق . ويبلغون عنك ما أنت فى حاجة إلى توصيله للقوم . ولكن الأهم من ذلك أنهم سوف يجدون الحماسة فى هذا المدير المتفل بهمومه وينهون ذلك المدير القلق الذى يحمل قلقه فى الترف والمرح حتى يتحمل مسئوليته .

إنهم بذلك سوف يعاونونك إنهم قليلو الحركة كثيرو التفكير والكلام ، فما يضيرك أن يجعلهم يتكلمون من أجل البناء بدل الرفض المتالب .

س : وسع دائرة الضوء . أخرجهم من الظلام ، اقشع سحب الدخان . وفر لهم سبل المشاركة بالتعبير . فانا لا أملك أقوى من الكلمة النابعة من وجدان القوم والكلمة الوافدة إليهم . أنا وحدى لا يمكن أن أفعل كل شىء ولكن بالقوم . عبر الكلمة إلى الوجدان أقود الحركة وأسلمها ■